

"29 km"

شلوميت باومان

تمهيد

ينطلق معرض **"29 km"** والندوة التي سبقته بعنوان "قيود على حرية الحركة" من اللقاء الذي تم بين فنانين فلسطينيين وألمان وإسرائيليين، ويتمحور في مناقشة ما يدور حول انعكاس هذا الموضوع على أرض الواقع في منطقتنا.

ميدان هذا البحث يدعوا المشاركين فيه للتعبير عن ردود فعلهم بلغة الفن، وهي اللغة العاكسة لمختلف جوانب التصعيد المتواصل والمتزايد في فرض قيود مختلفة على حركة السكان الفلسطينيين القابعين تحت الاحتلال الإسرائيلي وعلى حركة الفلسطينيين الذين يعيشون تحت السيادة الإسرائيلية.

تتجلى القيود على حرية الحركة بطرق ووسائل مختلفة ومتنوعة تنتظم بموجبها حركة الأفراد في المساحة العامة وفي المساحة الخاصة. تبرز من هذه الترتيبات مسألة موقع الفرد كذات تُدار وفق شفرات شخصية واجتماعية وتناور ما بين تطلعاتها وبين قدرتها على تحقيق هذه التطلعات. الذات من جهة هي نتاج نفس الـ"أنا" (self) بما تحمل من سمات ورغبات، وهي نتاج النظام الاجتماعي من جهة ثانية. "قيود على حرية الحركة" بمغزاها في ظل الواقع الإسرائيلي-الفلسطيني المحلي تعني مناورة لا نهائية بين قضايا الهوية والقومية والدين والاقتصاد، وهي القضايا التي تحاول تطويع الوعي الداخلي والبيئة المادية وفقاً لحاجاتها. تتحول "حرية الحركة" إلى أمنية بعيدة المنال حيال بيئة شرسة تطبق حصارها على الفرد لكونه محتل بالدرجة الأولى وكذلك لكونه يمارس الاحتلال.

في حين تنفجر المساحات العامة في أوروبا لتسهيل حركة أعضاء الاتحاد الأوروبي، حيث تلغى القيود ويتحول التنقل الجسدي والاقتصادي إلى مهمة سهلة ومنحة أكثر وأكثر، يسعى الاحتلال الإسرائيلي على صعيد مواز إلى فرض قيود جديدة تضيق الخناق على حرية السكان الفلسطينيين في الحركة وتمثل بفرض أنظمة ضبط وسيطرة تشمل كافة مناحي الحياة: سيطرة عسكرية وسيطرة اقتصادية وسيطرة على الطاقة وعلى موارد مختلفة كالماء والكهرباء، وسيطرة على تقسيم مناطق السيادة وسيطرة على المعلومات وتقسيم السكان بحسب الجيل والجنس وتعلقهم بالتصاريح والموافقات. وتنشأ بالإضافة لذلك سيطرة على المجال المادي تتمثل في بناء الجدران وحفر القنوات ونصب الحواجز بمختلف أنواعها، وشق الشوارع الفاصلة وبناء الأسوار الإسمنتية واللجوء إلى وسائل إلكترونية ورقمية وغيرها، ويتم توظيف كل هذه الوسائل بهدف السيطرة على 3.5 مليون فلسطيني. هذه القيود تجعل من الحركة أو التنقل أو الوصول مهاماً تزداد صعوبتها من يوم لآخر.

يثير معرض **"29 km"** جدلاً ويلقي نظرة شاملة على تاريخ وواقع التسهيلات والقيود على الحركة من مكان لآخر. من مكان مادي إلى مكان نفسي، أشبه بطواف في الفضاء من خلال فتح معابر وإغلاقها بواسطة أسئلة تتناول موجات من الهجرة والطرود والاقتصاد والتغيرات التكنولوجية والحالات المادية والسيكولوجية والنفسية.

نظرة تاريخية شاملة

ينقسم الخطاب بشأن حل النزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى مناظرتين جوهريتين: مناظرة تاريخية وأخرى أخلاقية. تتميز المناظرة التاريخية بالجدل الدائر حول معالم رئيسية على امتداد مسار النزاع وحول "الحقائق" أو حول "رواية" هذا النزاع: "حرب التحرير" مقابل "النكبة". أحد الأسئلة الشائعة التي تطرح في المناظرات التي تتناول العلاقة بين "الرواية التاريخية" والأخلاق تتناول نقطة بداية هذا النزاع من الناحية الزمنية: يفضل الكثير من

الإسرائيليين المترددين حيال قضايا تاريخية وأخلاقية اعتبار حرب الأيام الستة نقطة مرجعية على محور الزمن ويعتبرون الخط الأخضر علامة أخلاقية تحولت إلى ممارسة عملية. وهناك مجموعة أصغر من السكان اليهود يعتبرون "خطة التقسيم" التي اقترحتها الأمم المتحدة في حينه كنقطة انطلاق للتفاوض في سبيل التوصل إلى تسوية مستقبلية مع الفلسطينيين. قلة قليلة من اليهود المقيمين في إسرائيل يعودون بنظرتهم إلى الوراء، إلى ما قبل سنة 1948 في محاولة لفهم المفردات التي تسمح بفهم تلك الفترة وفهم المسار الذي أدى إلى اندلاع الحرب بين اليهود والفلسطينيين في المنطقة. يحاول معرض "Pass" القيام بإعادة نظر وتكوين رؤية مختلفة للرواية التاريخية والأخلاقيات المميزة للهيمنة الإسرائيلية بالنسبة للمجتمع الفلسطيني: بدافع التعاطف والتفهم لا بدافع التهديد والترهيب؛ وكذلك العلاقة بالنسبة للمجتمع الألماني- دون الوقوع في فخ الرواية السائدة التي نشأت في إسرائيل حيال ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية. من هنا تأتي مشاركة الفنانين الألمان كجزء من مجموعة تفحص مسألة القيود على حرية الحركة في سياق منطقتنا، وهي مشاركة مهمة للغاية في سبيل تكوين تلك النظرة المختلفة على الواقع الذي نحياه. يسعى معرض "Pass" إلى خلق مساحة لا يتم فيها فصل سياقات بين علاقات الألمان والإسرائيليين أو الإسرائيليين والفلسطينيين أو الفلسطينيين والألمان كل على حدة، إنما بالنظر إليها كمثلث من العلاقات بين الألمان والإسرائيليين والفلسطينيين، كونها ثلاث مجتمعات لا يمكن فك الرباط التاريخي القائم بينها، ذلك الرباط الذي يستدعي البحث المستديم والتحليل الواعي.

برلين، وماضيها كمدينة مقسومة بسور، وبصفتها رمز لهدم وإعادة بناء العلاقة بين غرب أوروبا وشرقها. برلين التي تحولت من مدينة مجزئة إلى مدينة مفتوحة وعالمية تخلق علاقة رمزية متفرعة ومركبة تاريخياً وحضارياً في سياق تقييد الحركة مقابل زيادة حرية الحركة. لا تتمثل نقطة الانطلاق في تعامل رومانسي مع تفكيك سور برلين كعمل أحادي الجانب "فتح عصراً جديداً". إنها ليست محاولة للاقتداء بمثالية الخطوة الألمانية وتجاهل المشاكل الجديدة التي نشأت إثر هدم سور برلين (تغييرات على الصعيد الدولي ومشاكل اجتماعية واقتصادية)، إنما هي حالة من التواصل بالمراسلة مع مجتمع عاش 40 سنة في ظل العزل المفروض عسكرياً وخبر بشكل ملموس تغييراً جذرياً في المفاهيم أدى إلى اتساع مجالات وإمكانيات الحركة في ألمانيا وفي أوروبا كلها. هذه المفارقة المرهبة بين طبيعة القيود المتزايدة التي تفرضها إسرائيل على حركة السكان الفلسطينيين وفتح هذه الحدود في سياق المجتمع الألماني بصفة خاصة والمجمع الأوروبي بصفة عامة تتيح لنا مراجعة مسألة القيود كقضية قابلة للتغيير من خلال التأمل في مجتمع يمر بهذا التغيير الجوهرى.

يحاول معرض "29 km" تفكيك الصعوبة الهائلة والمشحونة الخاصة بالمجتمعات الثلاث- الألماني والإسرائيلي والفلسطيني- ومراجعة العلاقة الثلاثية من خلال الاعتراف بتعقيدها من جهة ومحاولة فك صعوباتها من جهة ثانية.

ندوة: "قيود على حرية الحركة"

تم التعامل مع موضوع "قيود على حرية الحركة" من خلال عقد حلقة دراسية جمعت بين المشاركين في المشروع. وكجزء من دراسة ممارسات فرض القيود وتطبيقاتها العسكرية، التقينا بفنانين ومهندسين معماريين وخبراء في تطوير المدن وأخصائيين من مجال الصحة النفسية وعلم المجتمع وناشطين من مختلف المنظمات التي تعنى بجمع المعلومات وحل مشاكل عينية للسكان الفلسطينيين الذين يتعاملون مع مختلف القيود الاعتبارية المفروضة على حرية الحركة. قمنا بجولات في رام الله ومحيطها وفي القدس الشرقية وأم الفحم وتل أبيب. ولهذا الغرض التقينا لمدة أسبوع في نهاية شهر نوفمبر 2008.

طرحت الندوة العديد من القضايا التي أدت إلى مراجعة متواصلة تمثلت في ماهية قيام هذه الندوة وخروجها إلى حيز التنفيذ:

شعب الفلسطينيين من مناسبات "التعايش" و"التطبيع" (لقاءات كثرت بين يهود وفلسطينيين خاصة في فترة اتفاق أوسلو) التي تحول إحياؤها بحد ذاته إلى موضوع النزوة الإسرائيلية تجاه "عملية السلام". وخلافاً لسياسة "السلام"

المعلنة، فقد تزايدت عملياً القيود المفروضة على حرية الحركة وأغلقت المعابر أمام البضائع ومصادر العيش وتوسعت المستوطنات، بل وأضيفت مستوطنات جديدة، وتواصلت السيطرة الاقتصادية. هذا التصعيد الذي تسارعت حدته منذ الانتفاضة الثانية أدى لتحفظ العديد من الفلسطينيين، ومنهم الأكاديميين والفنانين، على أي لقاء مع الإسرائيليين أو إجراء مراجعة دقيقة لماهية التعاون معهم. لقد نشأت الثقة المتبادلة التي أتاحت التعاون بين الفنانين الإسرائيليين والفلسطينيين خلال اللقاءات والحوارات التي تمت في رام الله خلال الأشهر التي سبقت الندوة.

بالإضافة لذلك وفي ظل الأوضاع الحالية، يحتاج الإسرائيليون والفلسطينيون إلى تصاريح دخول لكي يلتقوا مع بعضهم البعض (في مناطق السلطة أو في مناطق السيادة الإسرائيلية). سياسة الفصل الإسرائيلية لا تسمح بقيام اللقاء، إلا إذا قدم الأطراف طلباً للمرور. احتمالات الحصول على تصاريح للمشاركة في مناسبة فنية في ظل الوضع الراهن تقترب من الصفر بالنسبة للطرفين، لكن ما أشد وأقسى من ذلك هو التسليم بهذا الواقع وترسيخه في الأذهان من خلال اللجوء إلى التصاريح بحد ذاتها – وهي خطوة تمنح هذا الأسلوب شرعية. لهذا فقد كان المبدأ المتفق عليه للقاءنا هو أن لا يطلب أحد تصريحاً للدخول (لا لإسرائيل ولا لرام الله) – ما عدا شريف سرحان – فنان يعيش ويعمل في غزة وليس هناك فرصة لخروجه من غزة والالتقاء بنا في رام الله وأم الفحم وتل أبيب. وبما أننا علمنا أن الفنانين الفلسطينيين لن يصلوا إلى تل أبيب أو أم الفحم لأن الأمر ينطوي على خطورة بالغة بالنسبة لهم، فقد صممنا الندوة بحيث يتم عقد معظمها في رام الله.

تم رفض طلب شريف سرحان للحصول على تصريح للسفر من غزة إلى رام الله واقتصرت مشاركته في الندوة على الحديث عبر الهاتف والإنترنت.

للمفارقة نجد أن الفنانون الألمان هم الوحيدون القادرون من الناحية القانونية على التحرك بحرية كاملة في منطقتنا بين رام الله وتل أبيب دون قيد: الأجانب يتحركون بحرية في المحيط والسكان المحليين يتحركون في نطاق القيود المفروضة على الدوام.

بعد مرور ما يقارب الشهر على انعقاد الندوة، أي في نهاية ديسمبر 2008، بدأ هجوم إسرائيل الرهيب على غزة. كان يبدو أن هذا الهجوم سيخلط الأوراق بقوة مرة أخرى. من جهة ثانية، فإن التأمل العقلاني في الواقع على طرفي الحاجز يدل على أن الهجوم على غزة يبدو كاستمرار طبيعي للوجهة التي اتسمت بها السياسة الإسرائيلية: طرد، عنف، احتلال، فصل.

في ندوة "قيود على حرية الحركة" وفي معرض "Pass" الذي يليها قمرل بخلق لحظة فريدة من نوعها حين ألغينا الفصل المادي والنفسي وخلقنا أجواء كأننا نعيش في مقاطعة مختلفة وعقلانية. إنها لحظة هامة تخللها نقاش مؤلم وخال من الأوهام. وفيما وراء النقاش بحد ذاته، وفي ظل الواقع السائد حالياً، فإن قوة الندوة والمعرض تنبع من قيامها بحد ذاته: تحول المشاركون بالمشروع بلنظارهم خلال الندوة إلى مسائل مثل علاقات القوة والاحتلال والحكم وفتح الحدود وإغلاقها والسيطرة وحركة الجماهير والأفراد. أعمالهم المعروضة في المعرض تثير أسئلة جوهرية في سياق علاقات القوة تلك.

